مناقب

الإمام أحمد بن حنبل

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي

«٥١٠ - ٥٩٧ هـ»

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي



بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد : عبد الله ورسوله إلى الناس أجمعين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب (مناقب الإمام أحمد بن حنبل) رحمه الله تعالى للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، أصدرها – بعون الله عز وجل وتوفيقه – بعد أن نفدت الطبعة الأولى ، ووجدت نسخا أخرى من مخطوطات الكتاب استفدت منها فى تحقيقه ومقابلة أصوله ، فجاءت هذه الطبعة امتدادا للطبعة السابقة ، وإضافة جديدة لها ، وكسبا زكيا فى سوق العلم والمعرفة .

والفضل فى نشر هذه الطبعة وما سبقها لله عز وجل ثم للملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، إذ ما إن علم بأن الكتاب يحقق ويعد للطبع فى طبعته الأولى حتى أمر بتوزيعه على نفقته ، فأهدى بذلك إلى طلاب العلم والمعرفة كتابا من أهم الكتب وأحيا به أثرا مهما من آثار السلف الصالح ، والملك خالد رحمه الله فى باب الإحسان أشهر من أن يذكر فهو ملك صالح ، رقيق القلب ، عابد لله ، محب للعلم والعلماء ، حريص على نشر كتب السلف الصالح فى داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ، حريص على الدعوة إلى الله وتبصير الناس بما

يجب عليهم تجاه خالقهم ، وتجاه بعضهم بعضا ، حريص على إكرام العلماء وتقديرهم وتشجيعهم للقيام بواجبهم تجاه العلوم الشرعية وبيان الحق للناس ، وهو فى هذه الصفات سالك مسلك والده الملك عبد العزيز رحمه الله وأسلافه من إخوانه الكرام الذين نشر فى عهدهم عشرات الكتب وأمهات المراجع ، وخلفهم من بعدهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ أيده الله وحفظه ـ الذى أولى العلم والعلماء جل اهتمامه ، وانطلق فى عهده انطلاقة لم يسبق لها مثيل ، إذ قامت الجامعات ودور العلم والمكتبات بإصدار الكثير من تلك الآثار العلمية المهمة . ومن يطلع على فهارس الكتب التى صدرت فى هذا العهد الزاهر يتبين له مقدار هذا الاهتمام .

ونحن عاجزون حقا عن شكرهم والثناء عليهم ، وحسبنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خيرا لقاء ما نشروا من العلم الأصيل ، ولقاء ما أبدوا من اهتمام به ، وما بذلوا فى سبيله ، وأن يجعل ذلك فى موازين حسناتهم ، ويجعله من الصدقات الجارية المقبولة الدائمة الأجر والثواب .

أما الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، وكتاب مناقبه هذا ، وأهميته فقد بينت فى مقدمتى الطبعة الأولى وهذه الطبعة ما لو ذكرته أيضا هنا لاعتبر من قبيل التكرار الذى لا داعى له ، ويكفى أن أشير إلى أنه حين صدرت الطبعة الأولى المحققة منه تلقفها طلاب العلم ، واعتبروا الكتاب كسبا يضاف إلى كنوز المعرفة عن أسلافنا الأوائل الذين جاهدوا فى الله تعالى حق جهاده ، وأمضوا حياتهم فى خدمة الشريعة الإسلامية، وحفظ أصولها وفروعها، وبيانها للناس ونفى البدع والضلالات عنها ، وتقديمها للأمة صافية خالصة من الشوائب ، كما جاءت عن الله تبارك وتعالى الذى قال فى كتابه العزيز : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ ، وكما جاءت عن رسوله محمد ﷺ الذى قال : « تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وقد سلك أئمة الهدى من سلف هذه الأمة رحمهم الله تعالى هذا المسلك ، وساروا على هذا الطريق المضيء المستقيم ، لا يشتبه عليهم الحق من الباطل ، بل يميزونه منه كما يميزون الأشياء المحسوسة المسلمة المعلومة بالضرورة ، فهم يقومون بخدمة هذا الدين على علم وبصيرة وهدى ، يزين ذلك إخلاص وصدق وتقى وجد ، وابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة ، والغيرة على الإسلام وشريعته المطهرة ، وعقيدته الخالصة أن تمس أو يلحق بها ما ليس منها .

والإمام أحمد رحمه الله ، فى حياته العلمية وجهاده فى سبيل المحافظة على شريعة الإسلام والانقطاع لخدمته ، ونشر علومه — هو فى كل ذلك ينطلق من هذا المنطلق ، ويتصف بتلك الصفات الحميدة التى ورثها عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان .

ومن هنا جاء الاهتمام بكتاب مناقب الإمام أحمد ، لأنه يتحدث عن علم من أعلام أهل السنة والجماعة ، وإمام من أئمتهم ، كان كالجبل الراسخ لا يتزحزح عن الحق مهما ناله من الأذى ، يشهد بذلك موقفه ومحنته فى فتنة القول بخلق القرآن وكان كالمصباح يضيىء طريق السالكين يشهد بذلك مبلغه من العلم ، وكان قدوة فى الزهد فيما لدى الناس من المال والمتاع ، وقدوة فى الحيطة من الحرام والشبهات ، وحياته العامة والخاصة تشهد بذلك .

وفى هذا المقام يحسن أن أشير إلى أنه من فضل الله عز وجل على أهل السنة والجماعة أن مسلكهم وموقفهم من سلفهم الصالح فى باب الذكر الحسن لهم والثناء عليهم ، والتأليف فى صفاتهم ومناقبهم ، أنهم يذكرون ذلك على سبيل المحبة المشروعة ، ونسبة الفضل إلى أهله ، والتعريف بهم ، والإشادة بما كانوا عليه من العلم والفضل وحسن الخلق وسائر الصفات الحسنة ليقتدى الخلف بالسلف — بعيدا عن الغلو والإسراف والتعلق بالأشخاص ، إذ إن ذلك أوقع كثيرا من الفرق فى الضلال ، بل أوقعهم فى الشرك ، حيث وجهوا لهم كثيرا من

أنواع العبادة ، وصرفوا بذلك ما للخالق إلى المخلوق . فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ونسأله عز وجل أن يثبتنا على الحق ، ويصلح أعمالنا ، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم .

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا لقاء جهاده وصبره وخدمته لدين الله الحنيف .. ورحم الله ابن الجوزى الذى ترك لنا كنزا من كنوز العلم والمعرفة عن علم من أعلام الإسلام ، وعالم من علماء الأمة الكرام .

ورحم الله الملك خالد بن عبد العزيز رحمة واسعة ، وأجزل له المثوبة لقاء ما قدم لدينه وأمته ، فتوزيع هذا الكتاب أثر من آثاره الحسنة ، إذ يوزع فى هذه الطبعة على نفقته رحمه الله امتدادا لتوزيع الطبعة الأولى ، فجزاه الله أحسن الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

عبد الله بن عبد المحسن التركى

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ..

وبعد :

فإن الإمام أحمد – رحمه الله ورضي عنه – علم من أعلام المسلمين ، وإمام من كبار أئمتهم ، ومجاهد في سبيل الله صبر على الأذى فيه ، وضرب أروع الأمثلة ، حتى عد من القلائل في تاريخ البشرية .

يعرف ذلك عامة المسلمين ، وكثير من غيرهم ممن له صلة بتاريخ المسلمين وعلومهم .

أما تفصيل ذلك وجزئياته ، وجوانب أخرى من حياة وصفات هذا الإمام الجليل فإنها غير معروفة ، وتحتاج إلى جلاء وكشف وبيان . وصلتي بهذا الإمام العظيم ليست قريبة ، ولا وليدة المصادفة . بل كانت أيام الصبا والدراسة الأولى حيث يتلقى الطلاب عادة نبذًا تعرف بالأئمة والعلماء في كل عصر ، وتابعت الطريق في التعرف على الإمام أحمد رحمه الله أكثر عن طريق قراءة ما كتب عنه سواء مستقلا أو مع غيره من الأئمة والعلماء رحمهم الله جميعًا ، وعن طريق الاطلاع على ما استطعت الاطلاع عليه من آثاره وآرائه وجواباته مطبوعة أو مخطوطة ، مستقلة أو مبثوثة في ثنايا الكتب .

ومما لا شك فيه أن لتتلمذنا على علماءِ الحنابلة وكتبهم أثرًا واضحًا في ذلك ، كما أن لانتشار المذهب الحنبلي في الجزيرة العربية أثره أيضًا .

وازدادت صلتي بهذا الإمام – عليه من الله الرحمة والرضوان – عندما قررت أن أكتب رسالة الدكتوراه في أصوله ، وقد تم لي أثناءَ تلك الدراسة الاطلاع على أشياءَ كثيرة لم أكن أعرفها عن الإمام أحمد رحمه الله . فإذا كنت وغيري يعرفون أنه إمام في الحديث والفقه وأنه امتحن وصبر في سبيل الله على ما لم يصبر عليه أحد ، فإن هناك الكثير من الجوانب العظيمة التي لا يعرفها كثير من الناس ، مع شدة حاجة المسلمين إلى معرفتها .

ولقد شهد لهذا الإمام رحمه الله إمام من كبار أئمة الإسلام ذلكم هو الإمام الشافعي – رحمه الله – شهادة تكشف عن شيء من تلك الجوانب الخفية ، وتقرب إلى الأذهان ما كان عليه .

يقول الإمام الشافعي فيما رواه عنه الربيع بن سليمان : « أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، وإمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في السنة » .

وقال إبراهيم الحربي عنه : « أدركتُ ثلاثةً لم يُر مثلهم ، يعجز النساء أن يلدن مثلهم ، رأيت أبا عبيد القاسم بن سَلام ما مَثَّلته إلا بجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث فما شَبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما شاءَ ويمسك ما شاءَ » .

ويقول عبد الرزاق بن همام : « ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع » .

وقد تواتر مدحه والثناء عليه من كثير من مشايخه ، ومن كل من لقيه من طلاب العلم وغيرهم ، وليس هذا موضع الحديث عن ذلك ، فقد تكفلت به

كتب الطبقات والتراجم والمناقب ، سواء منها ما كتب عن الإمام أحمد باستقلال أو ما اشترك فيه مع غيره .

ولكن الذي يهمني التركيز عليه بمناسبة تقدمتي مناقبه – رحمه الله ورضي عنه – أمور :

١ – شدة تمسكه بالسنة والأثر :

اشتهر رحمه الله بشدة تمسكه بسنة رسول الله – ﷺ – واتباعه للآثار ، وحرصه على أن يكون له سلف فيما يقول ويفعل ، ولا ريب أن السنة النبوية الأصل الثاني لشريعة الإسلام هي متممة لكتاب الله ، وتعظيمها واتباعها من مستلزمات الإيمان ، والدين مصدره الأصلي الوحي ، وقد تعبد الله الأمة بتلقيه من ذلك المصدر ، ومجال الرأي في الشريعة هو مجال الاجتهاد في إلحاق ما لم يرد به نص بالمنصوص عليه ، وتطبق الوقائع على النصوص . وهو رأي له ضوابطه وحدوده .

والذين يتساهلون في السنة والأثر ، ويتوسعون في الرأي وقعوا في زلات شنيعة ، وتجرأوا على دين الله وهديه .

ولقد أنفق الإمام أحمد – رحمه الله – جل حياته في تتبع ما أثر عن رسول الله – ﷺ – وصحابته – رضوان الله عليهم – وجمع من ذلك الشيء الكثير ، وكان يتحرج أن يقول في مسألة لم يتحدث فيها الصحابة رضوان الله عليهم .

روي أن أحمد – رحمه الله – استأذن زوجته في أن يتسرى طلبًا للاتباع فأذنت له فاشترى جاريةً بثمن يسير وسماها ريحانة ، استنانًا برسول الله ﷺ .

ويقول عبد الملك الميموني – رحمه الله – : « ما رأت عيني أفضل من أحمد ابن حنبل ، وما رأيت أحدًا من المحدثين أشد تعظيمًا لحرمات الله عز وجل وسنة نبيه – ﷺ – إذا صحت عنده ولا أشد اتباعًا منه » .

وقد روى المرّوذي عنه أنه قال : « ما كتبتُ حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به ، حتى مر بي في الحديث أَن النبي ﷺ احتجمَ وأَعطى أَبا طيبةَ دينارًا ، فأَعطيت الحجام دينارًا حين احتجمتُ » .

وكان رحمه الله يعظم أهل السنة والأثر ، ويحث الناس عليه وينحي باللائمة على من ينتقصهم أو يقلل من شأنهم ، ويعرض عن أهل البدع ، وينهى عن كلامهم ويحرص على عدم مجالستهم ومحادثتهم ، روي أَن أَبا داود السجستاني – رحمه الله – قال : قلت لأَبي عبد الله أَحمد بن حنبل : أَرى رجلا من أَهل السنة مع رجل من أُهل البدع أَترك كلامه ؟ قال : لا ، تعلمه أَن الذي رأَيته معه صاحب بدعة ، فإن ترك كلامه وإلا فأَلحقه به .

وجاءَ في رسالة كتبها الإمام أَحمد – رحمه الله – جوابًا على سؤال سأَله إياه المتوكل عمن يتقلد القضاء بعد ذكر أَشخاص من المبتدعة لا يجوز توليهم أَعمال المسلمين قوله :

« وفي الجملة أَن أَهل البدع والأَهواء لا ينبغي أَن يستعان بهم في شيء من أُمور المسلمين ، فإن في ذلك أَعظم الضرر على الدين » .

رحم الله الإمام أحمد ، فقد وضع بهذا منهجا واضحًا لاحترام السنة والمتمسكين بها ، ولامتهان البدعة ، والمبتدعين والتحذير منهم والنصح صراحة لأَئمة المسلمين فيمن يجب أَن يقلد أُمور المسلمين ، وأَن لا يتقلدها من المبتدعة أَحد .

٢ – من شدة حرصه على التمسك بالسنة ، ورجوع الناس إليها ، واعتمادهم في فتاواهم وأَحكامهم على ما جاءَ فيها كراهيته لكتب الرأي والتصنيف فيها ، حتى يتوفر على النقل والسنة .

روي أَن عثمان بن سعيد قال : قال لي أَحمد بن حنبل : لا تنظر في كتب أبي

عبيد ، ولا فيما وضع إسحاق ، ولا سفيان ، ولا الشافعي ، ولا مالك ، وعليك بالأصل ، وكان يأمر من يسأله عن ذلك أن يلزم الحديث ويقرأ السنة .

روي أن رجلًا سأله – رضي الله عنه – فقال : أكتب كتب الرأي ؟ قال : لا ، قال السائل : فابن المبارك قد كتبها ، قال أحمد : ابن المبارك لم ينزل من السماء ، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق .

وكان أحمد – رحمه الله – ينهى عن أن يكتب كلامه أو يروى .

يروي أحمد بن الربيع بن دينار أن أحمد بن حنبل قال : بلغني أن إسحاق الكَوسج يروي عني مسائل بخراسان اشهدوا أني قد رجعت عنها .

ولا شك أن المقصود من ذلك التوفر على كتب السنة ، والتمكن من معرفة الحديث ، والابتعاد عن التقليد الضار واتباع آراء الرجال ، فليس ذلك طريق العلم الصحيح .

أما إذا تأهل الإنسان ، وعرف كتاب الله سبحانه وتعالى ، وسنة رسول الله – ﷺ – وما عليه سلف الأمة الصالح وأئمتها ، فلا مانع من أن ينظر في كتب الرأي والخلاف ، وأن يكتبها وينقلها عن أصحابها .

وقد نقل أصحاب الإمام أحمد – رحمه الله – وغيرهم من مسائله وآرائه ما يدل على عدم تشدده وكراهيته لذلك في آخر حياته ، ولكن الأصل السنة والاتباع ، وعدم العدول عما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ .

٣ – ولأحمد – رحمه الله – مزية قلما توجد عند العلماء وبخاصة في العصور المتأخرة وهي مزية في نظري يجب أن يتصف بها العلماء ، ذلكم أن العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء مبلّغون عن الله ومصلحون للناس بشريعة الله ، ومن لم يكن على شاكلتهم من العلماء والدعاة فلن يتحقق على يديه الخير .

هذه المزية التي اتصف بها الإمام أحمد – رحمه الله ورضي عنه – هي تعففه

عن أموال الناس ، وكف نفسه عن التطلع إلى شيء منها ، وانصرافه إلى رسالته الأساسية ؛ العلم النافع والعمل الصالح ، وبيان الحق للناس ، وهذه هي مهمة العلماء والمصلحين لا يأخذون من هذه الدنيا إلا ما يعينهم على تلك المهمة ، مع شدة صبرهم على اللأواءِ والمشقة ، لأنهم يحتسبون ذلك عند الله ، ويأملون في السعادة الأخروية ، وما فيها من نعيم مقيم . أما الدنيا فظل زائل ، وفترة محددة ، وطريق قصير يجب أن تنصرف الهمم فيها إلى ما هو أسمى من الشهوات والملذات المادية والجسدية .

لو تتبع القارئ الروايات التي رويت عن أحمد – رحمه الله – في هذا المعنى لتعجب كل العجب كيف يقوى الرجال على ذلك ! ولكنه الإيمان القوي ، والصبر والاحتساب ، والتوكل على الله .

وياليت أننا نتعظ بما نقرأ من سير هؤلاءِ الصالحين ، وياليت أن علماء المسلمين اليوم تكون لهم مراجعة لحياتهم وعلاقاتهم مع مجتمعاتهم على ضوءِ ما اختطه لنا الأسلاف وما كانوا عليه .

أعتقد أن ذلك لو كان واقتدى الخلف بالسلف ، وأصلحوا من حالهم لكان للعلماءِ شأن عظيم ، ولما آلت مجتمعات المسلمين اليوم ، وحالتهم إلى ما هي عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يقول أحمد بن سِنان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن ، وأكرى نفسه من ناس من الحمالين عند خروجه ، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها .

وروي عن الرمادي أنه قال : سمعتُ عبد الرزاق – وذكر أحمد بن حنبل – فدمعت عيناه وقال : « قدم وبلغني أن نفقته نفدت فأخذت عشرة دنانير وأقمته خلف الباب وما معي ومعه أحد ، وقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وقد وجدت عند النساءِ عشرة دنانير فخذها ، فأرجو أن لا تنفقها حتى يتهيأ عندنا

شيء ، فتبسم وقال لي : يا أَبا بكر ، لو قبلتُ شيئًا من الناس قبلت منك ، ولم يقبل » .

وقد عرض على كثير من العلماءِ المعاصرين له المال فأَخذوه ، منهم : يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وأَبو مسلم المستملي .

وكان الإمامُ أَحمد ــ رحمه الله ــ يحتاج للنفقة أحيانًا فيبيع بعض ملابسه ويرهن البعض .

وقد وقعت للإمام أَحمد ــ رحمه الله ــ قصة في مكة المكرمة رواها ابنه عبد الله عن علي بن الجهم ، قال : كان لنا جار ، فأَخرج لنا كتابًا ، فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هذا خط أَحمد بن حنبل كيف كتب لك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أَحمد بن حنبل أَيامًا ثم جئنا إليه لنسأَل عنه ، فقال لنا أَهل الدار التي هو فيها : هو في ذلك البيت فجئنا إليه والباب مردود عليه وإذا عليه خلقتان ، فقلنا له : يا أَبا عبد الله ، ما خبرك ؟ لم نرك منذ أَيام ؟ فقال : سرقت ثيابي ، فقلت له : معي دنانير فإن شئت خذ قرضًا وإن شئت صلة ، فأَبى أَن يفعل ، فقلت : تكتب لي بأُجرة ؟ قال : نعم ، فأَخرجت دينارًا فأَبى أَن يأَخذه وقال : اشتر لي ثوبًا واقطعه نصفين ، فأَومأَ إلي أَنه يتزر بنصف ويرتدي بالنصف الآخر ، وقال : جئني ببقيته ، ففعلت وجئت بورق فكتب لي ، فهذا خطه .

وفي رواية أُخرى أَنه كتب له ما سمعه من ابن عيينة .

وقد روى صالح بن أَحمد بن حنبل ، قال : « أدخلت على أَبي في أَيام الواثق والله يعلم في أَي حالة نحن ، وقد خرج لصلاة العصر ، وكان له لبد يجلس عليه قد أَتت عليه سنون كثيرة قد بلي ، فإذا ثمة كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغني يا أَبا عبد الله ما أَنت فيه من الضيق ، وما عليكَ من الدَّين ، وقد وجهت إليك بأَربعة

آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك ، وتوسع بها على عيالك ، وما هى من صدقة ولا زكاة ، وإنما هو شيء ورثته عن أَبي ، فقرأت الكتاب ووضعته ، فلما دخل قلت : يا أَبت ، ما هذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه وقال : رفعته منك ، ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ونحن في عافية ، فأَما الدَّين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأَما عيالنا فهم في نعمة الله والحمد لله ، فذهب بالكتاب إلى الرجل الذي كان أَوصل كتاب الرجل فقال : ويحك ، لو أَن أَبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجورًا ، لأَن هذا الرجل لا يعرف له معروف ، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما رد فلما مضت سنة أَو أَقل أَو أَكثر ذكرناها ، فقال : « لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت » .

هذه واحدة من قصص كثيرة ، وسيجد القارئ في كتاب « المناقب » أَشياء كثيرة من هذا النوع .

الله أَكبر ، كيف كانت همم الرجال ، ونفوس الصالحين ، أَين هذه النماذج ممن يحرص على جمع الدنيا ، ويتتبع سبلها ، ويحرص على كثرتها ؟ إن الدنيا محنة وفتنة وما اتجه إليها عالم إلا هبط في أَعين الناس ، وما تجنبها عالم إلا وضع الله له القبول والهيبة في قلوب العباد ، وهكذا كان أَحمد ــ رحمه الله ــ فهل من متعظ !

٤ ــ ومما له صلة بما تقدم زهد الإمام أَحمد ــ رحمه الله ــ وانقطاعه عن الدنيا إلا ما يصلح شأنه ، فلم تكن الدنيا همه ، ومن صبر على الفقر والمشقة والخشونة طول حياته ، كان همه الآخرة والعمل الصالح ، والخوف من الله سبحانه وتعالى ، يقول سليمان بن الأَشعث : ما رأَيت أَحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط ، وكان قوته وقوت أُسرته من غزل زوجته .

روى صالح ابنه أَن أَباه قال : « كانت والدتك في الغلاءِ تغزل غزلًا دقيقًا ، فتبيع الأَستار بدرهمين أَقل أَو أَكثر فكان ذلك قوتنا » .

وروي عن أبي بكر المروذي أنه قال : سمعت أبا عبد الله يقول : « أسرّ أيامي إلي يوم أصبح وليس عندي شيء » .

وقد قال صالح بن أحمد لأبيه : بلغني أن أحمد الدورقي أعطي ألف دينار ، فقال : يا بني ﴿ ورزقُ ربّكَ خيرٌ وأبقى ﴾[1] وذكر له ابن أبي شَيبة وعبد الأعلى النَّرسي ومن قدم به إلى العسكر من المحدثين فقال : إنما كانت أيامًا قلائل ثم تلاحقوا ، وما تخولوا منها بكبير شيءٍ . وذكر عنده يومًا رجل فقال : يا بني ، الفائز من فاز غدًا ولم يكن لأحد عنده تبعة .

هكذا كان أحمد ـ رحمه الله ورضي عنه ـ نموذجًا في الزهد ، منصرفًا للآخرة مبتعدًا عن الدنيا وزخارفها ، لا تستثيره أخبارها ولا تستميله شؤونها ، مُعلقًا أمله بربه ، وما عند الله خير وأبقى . نسأل الله أن يرزقنا القناعة .

٥ ـ وكان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ ورعًا إلى حد أنه يبتعد تنزهًا وورعًا عن أشياء ليست محرمة ، وكل شيء يشتبه فيه يتحرج منه ويبتعد عنه ، ومن ذلك كل ما يتصل بصلات الولاة ، وعطاياهم .

ومما روته كتب المناقب عنه : أن المأمون دفع مالا إلى إسحاق بن موسى الأنصاري وقال : قسمه على أصحاب الحديث فإن فيهم ضعفاء ، فما بقي منهم أحد إلا أخذ ، إلا أحمد بن حنبل : فإنه أبى .

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : « دخل عليَّ أبي ـ رحمه الله ـ في مرض يعودني ، فقلت : يا أبت ، عندنا شيء قد بقي مما كان يبرنا به المتوكل ، أفأحج منه ؟ قال : نعم ، قلت : فإذا كان هذا عندك هكذا فلم لم تأخذ ؟ قال : يا بني ، ليس هو عندي حرام ، ولكني تنزهت عنه » .

ومن شدة ورعه رحمه الله أنه مع شدة حفظه وضبطه للحديث لا يحدث غالبًا إلا من كتاب .

---

(١) سورة طه : ١٣١ .

وحدث إبراهيم الحربي قال : لزمت أحمد بن حنبل سنتين ، فكان إذا خرج يحدثنا يخرج معه محبرة مجلدة بجلد أحمر وقلمًا ، فإذا مر به سقط أو خطأ في كتابه أصلحه بقلمه من محبرته ، يتورع أن يأخذ من محبرة أحدنا شيئًا ، وكنا نقول لأحمد في الشيء : تحفظه ؟ فيقول : لا ، إلا من كتاب .

وقد ذكر أن أحمد بن حنبل أتى عليه ثلاثة أيام ما كان طعم فيها ، فبعث إلى صديق له فاستقرض شيئًا من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا له بالعجلة ، فلما وضع بين يديه قال : كيف خبزتم هذا بسرعة ؟ فقيل له : كان التنور في بيت صالح مسجورًا فخبزنا بالعجلة ، فقال : ارفعوا ، ولم يأكل ، وأمر بسد بابه إلى دار صالح .

٦ ـ وكان ـ رحمه الله ـ معرضًا عن الولايات والمناصب فلم يدخل في شيء منها خوفًا على دينه وذمته ، ولعل عذره في ذلك أنه يخشى من تدخل السلطان في قضائه ، أو أنه يعتقد أن هناك من هو أولى منه وإلا فمنصب القضاء قد يتعين على العلماء إذا لم يوجد أفضل منهم ، لأن به تقام الشريعة ويحكم بالعدل وتستقيم أمور الناس ، والمجتهد إذا اجتهد وأخطأ فهو مأجور ، وأجر الحاكم بشرع الله عظيم ، ورسولنا ﷺ وخلفاؤه الراشدون كلهم قضوا بين الناس ، وهم قدوة الأمة .

ومما يروى في عزوف أحمد ـ رحمه الله ـ عن الولاية ما حدث به إبراهيم المزني قال : قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : لما دخلت على هارون الرشيد قلت له بعد المخاطبة : إني خلفت اليمن ضائعة تحتاج إلى حاكم ، فقال : انظر رجلًا ممن يجلس إليك حتى نوليه قضاءها ، فلما رجع الشافعي إلى مجلسه ، ورأى أحمد بن حنبل من أمثلهم أقبل عليه فقال : إني كلمت أمير المؤمنين أن يولي قاضيًا باليمن وإنه أمرني أن أختار رجلًا ممن يختلف إلي وإني قد اخترتك فتهيأ حتى أدخلك على أمير المؤمنين يوليك قضاءَ اليمن ، فأقبل عليه أحمد وقال : إنما جئت إليك لأقتبس

منك العلم ، تأمرني أن أدخل لهم في القضاءِ ؟ ! ووبخه فاستحيا الشافعي .

وفي رواية أن الشافعي قال له : إن أمير المؤمنين سألني أن ألتمس له قاضيًا لليمن ، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق ، فقد نلت حاجتك تقضي بالحق وتنال من عبد الرزاق ما تريد ، فقال أحمد للشافعي : إن سمعت منك هذا ثانية لم ترني عندك .

٧ ــ وكان ــ رحمه الله ــ متواضعًا ، والتواضع صفة عظيمة من صفات العلماءِ ، فليس العالم الذي يغتر بعلمه ، أو جاهه أو منصبه ، وإن حصل ذلك فسد قلبه ، وضعف إيمانه ، وقل أثره ، ولكن العالم الحق هو الذي يعتبر نفسه فقيرًا لرحمة الله ، ويرى نفسه مهما بلغ في حاجة إلى التزود من العلم وأنه لا فضل له على غيره .

ولنا في إمامنا أحمد ــ رحمه الله ــ قدوة حسنة ، فقد بلغ من العلم شأوًا عظيمًا وعظمه الناس ، واعترفوا له بالفضل ، ومع كل ذلك فكان ينفر من الجاه والشهرة والذكر ، ويتناسى ما هو عليه ، ويتواضع لغيره ، ولا يفتخر بما وصل إليه .

يقول يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير .

ويقول صالح بن أحمد : كان أبي ربما أخذ القدوم ، وخرج إلى دار السكان يعمل الشيء بيده ، وربما خرج إلى البقال فيشتري الجُرْزَة من الحطب ، والشيء فيحمله بيده .

ويروى أن شيخًا من أهل خراسان قال لأحمد: يا أبا عبدالله ، الله ، الله ، فإن الناس يحتاجون إليك، قد ذهب الناس فإن كان الحديث لا يمكن فمسائل، فإن الناس مضطرون إليك ، فقال أبو عبد الله : إلي أنا ؟ ... واغتم من قوله ،

وتنفس الصُّعَداء ، ورئي في وجهه أثر الغم .

ويقول محمد بن أحمد بن واصل : سمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : من أنا حتى تجيئوا إلي ؟ من أنا حتى تجيئوا إلي ؟ اذهبوا اطلبوا الحديث . ويقول أبو بكر المروذي : سمعت أحمد بن حنبل — وذكر أخلاق الورعين — فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟

وقلت لأبي عبد الله : ما أكثر الداعين لك ! فتغرغرت عينه ، وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجًا ، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون .

هكذا تواضع العلماء ، وبُعدهم عن الخيلاءِ والصَّلَف ، وقد عرف الله صدق أحمد — رحمه الله — في هذا فكتب له من الشهرة ما لم يكن لغيره .

٨ — والعزلة والابتعاد عن الخلق قد تكون مناسبة أحيانًا حينما يعتقد العالم أنها أصلح له ، وأن المصلحة المترتبة عليها تترجح على المفسدة المترتبة على الاختلاط بالناس . وقد يكون فيها لذة المناجاة لله ، والتفكُّر في عجيب مخلوقاته ، ومآل الدنيا وزوالها ، وقد تكون من أجل طلب علم ، وقد تكون غضبة لله سبحانه إذا عرف العالم أن ما غضب من أجله سيزول باعتزاله المجتمع .

والإمام أحمد — رحمه الله — يتحرى المصلحة في تصرفاته ، فقد صبر على البلاءِ والمحن والأذى ، وجهر بكلمة الحق يوم أن كانت مصلحة الإسلام والمسلمين تدعو إليه واعتزل وآثر الوحدة حينما لم يكن ذلك .

يقول ابنه عبد الله — رحمه الله — : كان أبي أصبر الناس على الوحدة . ويقول أيضًا : لم ير أحد أبي إلا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق .

وقد يكون مرد هذا — والله أعلم — المحافظة على الوقت ، والاستفادة من

الفرص فليس العالم الذي تضيع منه الأَوقات دونما فائدة ، بل هو الذي لا تمر به ساعة إلا في علم وعمل ومصلحة للمسلمين . وفي قصص العلماء الأَفذاذ من سير حفظ الوقت ، والتضحية بشهوات الدنيا وملذاتها ما يدل على ذلك .

ويروى عن أَحمد – رحمه الله – أَنه قال : رأَيت الخلوة أَروح لقلبي . وقال في مناسبة من المناسبات : أُريد النزول بمكة ألقي نفسي في شعب من تلك الشعاب حتى لا أُعرف .

وهكذا تواضع أَحمد ، ورغبته عن الشهرة ، ولعله – والله أَعلم – رأَى أَن غيره من بعض العلماءِ من افتتن بها ، فصرفته عن الحق .

ومما يروى في رغبته عنها أَن عمه دخل عليه ويده تحت خده فقال له : يا ابن أَخي ، أَي شيء هذا الغم ؟ أَي شيء هذا الحزن ؟ فرفع أَحمد رأَسه ، فقال : يا عم ، طوبى لمن أَخمل الله عز وجل ذِكره .

وكان – رحمه الله – ينهى الناس عن اتباعه وهو يمشي في الطريق . يقول ابنه عبد الله : كان أَبي إذا خرج يوم الجمعة لا يدع أَحدا يتبعه ، وربما وقف حتى ينصرف الذي يتبعه .

٩ – أَما خوف الإمام أَحمد – رحمه الله – من الله فقد بلغ فيه مبلغًا كبيرًا حتى كان كثير الهم والغم ، والخوف من العاقبة ، وكثير التعبد لله ، طاعة له ورجاء في مثوبته ، وخوفًا من عقابه .

يقول صالح ابنه : كان أَبي إذا دعا له رجل يقول : الأَعمال بخواتيمها ، وكنت أَسمعه كثيرًا يقول : اللهم سلِّم سلِّم .

ويقول ابنه عبد الله : سمعت أَبي يقول : وددت أَني نجوت من هذا الأَمر كفافًا لا عليَّ ولا لي .

ويقول المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب مما أشتهيه .

وقال أيضًا : دخلت على أحمد يومًا فقلت : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بأداءِ الفرض ، ونبيه يطالبه بأداء السنة ، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاءِ ، وملك الموت يطالبه بقبض روحه ، وعياله يطالبونه بالنفقة ؟

ولقد سار الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ في حياته سيرة الزهاد والعباد الذين انقطعت آمالهم في الدنيا ، واتجهوا إلى الله في كل أعمالهم ولم يأخذ من هذه الدنيا إلا ما يبلغه رضوان الله .

كان رحمه الله فريدًا في العلماء ، جمع بين العلم والعمل ، وبين التواضع والزهد ، وبين القوة في الحق ، وإنكار الذات .

١٠ ــ أما ثباته على الحق ، وصدقه فيه ، وصبره على الأذى فأمر رافقه طوال حياته ، وكان المثل الرائع في ذلك ، لقد امتحن بالشهرة فصبر ، وامتحن بطلب الولاية والرياسة فأعرض وصبر ، وامتحن بمحن كثيرة إلا أن أبرزها أمر عجيب لا يصبر عليه إلا الأفذاذ من الرجال ، ذلكم هو امتحانه بالقول بخلق القرآن ، وصبره على مالاقاه في سبيل ثباته على عقيدة السلف ــ القول الحق في ذلك ــ من أن كتاب الله كلام الله نزله على نبيه ﷺ .

إن قصته في ذلك مع عدد من خلفاءِ بني العباس قصة فيها الكثير من الدروس والعبر ، وقد كتبت فيها الكتب والروايات ، وإنها لتستحق أكثر وأكثر ، إذ إن فيها منهجًا راشدًا للعلماءِ والدعاة في كل وقت . لقد امتحن المأمون العلماء ، وبعث بكتبه إلى ولاته ليحملوا الناس على القول بخلق القرآن ، فأجاب أكثرهم ، وممن امتنع : الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن بن حماد سجادة . ثم أجاب الأخيران ، وبقي أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح في السجن ، ثم أمر بهما فحملا إليه في طرسوس مقيدين زميلين .

وفي موقفه من القول بخلق القرآن يُحدث أبو مَعمر القطيعي فيقول : لما حضرنا في دار السلطان أيام المحنة ، وكان أبو عبد الله أحمد بن حنبل قد أحضر ، وكان رجلًا لينا فلما رأى الناس يجيبون انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللين الذي كان فيه ، فقلت : إنه قد غضب لله ، قال أبو معمر : فلما رأيت ما به قلت : يا أبا عبد الله ، أبشر ، حدثنا محمد بن فضيل ابن غزوان عن الوليد عن عبد الله بن جميع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : كان من أصحاب النبي ﷺ من إذا أُريد على شيء من دينه رأيتَ حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون .

وقد روي أنه قيل لأحمد بن حنبل أيام المحنة : ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل ؟ فقال : كلا ، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة ، وقلوبنا بعد لازمة للحق .

ومات ابن نوح وهما في الطريق إلى طرسوس .

أما أحمد فبعد أن مات المأمون رجعوا به إلى بغداد وألقي به في الحبس . وتولى المعتصم الخلافة بعد أن أوصاه المأمون بالمتابعة في القول بخلق القرآن ، ونفذ الوصية ، وعقد مجلسًا دعا إليه أحمد بن حنبل وحاول المعتصم وشيعته حمل أحمد على القول بذلك فأصر على موقفه السابق ، وعقد المجلس مرة ثانية وثالثة وهو مصر على رأيه فأمر المعتصم الجلادين فضربوه ضربًا شديدًا ، وانتهى عهد المعتصم ، وجاءَ من بعده الواثق واستمر كسلفيه السابقين في مسألة القول بخلق القرآن .. وظل أحمد في عهده ملازمًا لبيته .

وجاءَ من بعده المتوكل فأنهى هذه المحنة ومال إلى السنة ونصر أهلها ، وكتب بذلك إلى الآفاق . وعاش أحمد بقية حياته مكرمًا زاهدًا في الدنيا وأهلها .

يروى أن رجالًا من أهل الحديث دخلوا على أحمد وهو محبوس بالرَّقة ، فجعلوا

يذاكرونه ما يروى في التَّقية من الأَحاديث ، فقال أَحمد : وكيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كانَ قبلكم كان يُنشر أَحدهم بالمنشار ثم لا يَصده ذلك عن دينه » ؟ فيئسوا منه .

إن تفاصيل المحنة تفاصيل مدهشة ومثيرة ، وإن المناظرة التي جرت بين أَحمد وخصومه بها من العبر والعجائب ، ما يدل على أَن العالم إذا صدق مع الله أَبان له الحق ، وأَظهر له الحجة ، وجعل الغلبة له ، لقد امتحن أَحمد فيها بالتهديد والترغيب ، لقد أُسهم فيها الحكام والوزراءُ والعلماءُ والعامة ، ولكن ذلك لم يثن الرجل عن الحق . فكانت العاقبة له .

وانتهت محنة القول بخلق القرآن ، وحصل لأَحمد فيها من الأَذى الشيء الكثير واتجهت الأَنظار إليه بعد ذلك وحرص الخليفة على إعطائه من المال ما يوسع عليه ، ورغب أَن يُعلم ولده الحديث ، وحاول كثيرون أَن يصلوه بما يرفع عنه وعن أَولاده الفاقة ، ولكنه وقف من ذلك كله موقفه من المحنة الأُولى ، واعتبر هذا من المحن التي يجب الصبر عليها ، فرد كل العطايا وابتعد عن الولاة والرؤساءِ ، ووصل الأَمر به إلى أَن يقاطع أَقاربه الذين يأخذون أَموالًا من السلطان ، ونهاهم عن ذلك لأَنهم إنما يأخذون بسببه ، وعاش بقية حياته زاهدًا عابدًا بعيدًا عن مغريات الدنيا وزخارفها ــ عليه من الله الرحمة والرضوان ــ .

إن المحنة وما حصل فيها من أهوال درس يجب أَن يقف عنده كل عالم ليتعظ ويعرف منهج العلماءِ الصابرين الذين لا يخافون في الحق لومة لائم ، والذين باعوا الدنيا طلبًا لما عند الله .

إن أَحمد ــ رحمه الله ــ يطبق منهج الإسلام في سيرة العلماءِ ، وما يجب أَن يكونوا عليه . فهل من مُدّكر ؟ ولا شك أَن امتحانه بذلك وصبره عليه علامة مميزة له ، ومنقبة من مناقبه ، قلما يجدها الإنسان في كثير من علماءِ المسلمين في مختلف العصور .

* * *

هذه نقاط عشر من أهم ما يتميز به الإمام أحمد – رحمه الله – ومن أهم ما يلحظه فيه الدارسون لحياته وسيرته وآثاره ، وهي أمور يجب تجليتها للناس ودعوتهم إليها ، لأنها منهج الإسلام الحق الذي دعا إليه رسول الله ﷺ ، وسار عليه سلف الأمة الصالح[1] .

(١) ما تبقى من مقدمة الطبعة الأولى ورد ضمن مقدمة الطبعة الثانية ، لذلك تم حذفه منعًا للتكرار .

مقدمة

الطبعة الثانية

لا تَزال أُمة الإسلام تَبتدر من الأعمال الصالحة ، وتَستنُّ من السنن الحَسنة ما يدل على سبقها ، وأصالتها ، وخيريتها ، وتَميزها ، فضلًا من الله ونعمةً ، وتوفيقًا .

و « أدب المناقب » نهج في التأليف والتعريف ، والتقدير والتنويه ، والوفاء والبر ، والتواصل والتراحم ، اختصت به هٰذه الأُمة ، أو ظَهر فيها ، وتكاثر ورَبا ، واستفاضَ ، وعَظُم ، وتأصّل على نحوٍ لم يتوافر لأمةٍ أخرى .

لا جَرم أن ذلك علامة واضحة من علامات الخَيرية التي شَهد اللهُ تعالى بها لهذه الأمة المحمودة .

فمن خصائص هذه الخَيرية :

* أن يَعرف اللاحقون قَدرَ السابقين ، وأن يحلوهم مَكانتهم اللائقة بهم .

* وأن يذكر مَن أتى مِن بعد ، مَن قَدمه بإحسان بما هو له أهلٌ من الثناء والفضل .

* وأن تَمتدَّ صلة الإيمان ، وتتسع دائرة الإخاء لتشمل أهل التوحيد والسنة مهما فصلت بينهم القرون والأعراق .

* وأن تَتواصى الأجيال بتكريم الأئمة الأعلام والدعاء لهم ، بثًّا للقدوة وحفزًا للهِمَم .

* * *

الأصول والمنابع :

ولأدب المناقب أصوله ومنابعه في منهج الإسلام :

١ – دعا الخليل إبراهيم ﷺ رَبَّه فقال : ﴿ واجْعَل لي لِسانَ صِدقٍ في الآخِرين ﴾[1] .

قال مُجاهد وقَتادة : يعني الثناء الحسن ، كما قال تعالى : ﴿ وآتَيناهُ في الدُّنْيا حَسَنَة ﴾[2] . أي : لسان صدق .

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ وآتَيناهُ أَجْرَه في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصالِحِين ﴾[3] . « أي : جَمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكانَ له في الدنيا الرزق الواسع الهنييء ، والمَنزل الرَّحب ، والمَورد العَذب ، والزَّوجه الحَسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذِّكر الحسن »[4] .

لقد استجابَ اللهُ تعالى دعاء خَليله إبراهيم – عليه السلام – وجَعله مذكورًا بالخير والصدق والمكارم مُنذ أن نَطق بذلك الدعاء ، وإلى أن يَرث اللهُ الأرضَ ومن عليها .

وهذه نعمة عظيمة . فالثناء الحسن عاجل بُشرى المؤمن إذا سمعه وهو حي ، وهو شرفه الباقي ، ورصيده المُسْنَد بَعد أن يقضي .

٢ – والأصل في العَلاقة بينَ المسلمين : الدعاء ، والمحبة ، وذكر سابقة الإيمان ، وطى القلوب على النَّقاء ، والثِّقة ، وحُسن الظن – مهما بعد الزمان ،

---

(١) سورة الشعراء : ٨٤ .

(٢) سورة النحل : ١٢٢ .

(٣) سورة العنكبوت : ٢٧ .

(٤) « تفسير ابن كثير » ٣ / ٤١١ .

وتباعد المكان ـــ : ﴿ والذينَ جَاؤوا من بَعْدِهم يَقولونَ رَبَّنا اغْفِر لَنا وَلإِخْوانِنا الذينَ سَبَقونا بالإِيمان ولا تَجْعَل في قُلوبنا غِلًّا لِلّذينَ آمَنوا رَبَّنا إنَّكَ رؤوفٌ رَحيم ﴾[1] .

٣ ـــ وليس في الكون عَبث ، ولا ضياع ، ولا هَدر ، بل كلّ ما يقع في هذا الكون مُحصىً ، ومُسجل ، ومَكتوب : ﴿ نَحنُ نَكتبُ ما قَدَّموا وآثارَهم وكلّ شَيءٍ أَحْصَيناهُ في إمامٍ مُبين ﴾[2] . والمناقب ، آثار صالحة يكتبها الله تعالى ، ويأذن للبشر بكتابتها وتدوينها .

٤ ـــ إن هذه الأمة مَمدوحة ـــ في كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ .

* ومن ذلك قول الله تعالى :

ـــ ﴿ محمدٌ رَسولُ اللهِ والذينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ على الكُفارِ رُحَماءُ بَيْنَهم تَراهُم رُكَّعًا سُجّدًا يَبْتَغونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ ورضوانًا سِيماهُم في وُجوهِهِمْ مِن أَثَر السجود ، ذَلك مَثَلُهُم في التَّوراةِ ومَثَلُهم في الإنْجيل كَزَرْعٍ أَخْرجَ شَطْأَهُ فآزَرهُ فاستَغْلَظَ فاسْتَوى على سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمِ الكُفار وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ منهُم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا ﴾[3] .

ـــ ﴿ كُنتُم خَيرَ أُمةٍ أُخرِجَت للناسِ تَأمرونَ بالمَعروفِ وتَنْـهَونَ عنِ المُنكَرِ وتُؤمنون بالله ﴾[4] .

ـــ ﴿ إنّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئك هُمْ خَيرُ البَريّة ﴾[5] .

---

(١) سورة الحشر : ١٠ .

(٢) سورة يسٓ : ١٢ .

(٣) سورة الفتح : ٢٩ .

(٤) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٥) سورة البينة : ٧ .

- ﴿ إنَّ المُتَّقينَ في جَناتٍ وعُيون ، آخِذينَ ما آتاهُم رَبُّهم إنَّهم كانوا قَبلَ ذلك مُحْسِنين ، كانوا قَليلًا مِن الليلِ ما يَهْجَعون ، وبالأَسْحارِ هُم يَسْتَغفِرون وفي أَموالِهم حَقٌ لِلسائِلِ والمَحْروم ﴾[1] .

* ومن ذلك ما جاء في السنة المُطهرة ، مما أثنى به الرسول ﷺ على الصحابة - رضي الله عنهم - جُملةً أو تفصيلًا .

* * *

من خلال هذا المفهوم ، نحتفي بالنّتاج العلمي الذي عُني بمناقب الإمام أحمد ابن حنبل - رحمه الله - .

فللإمام أحمد نَصيب - إن شاء الله - من دُعاء إبراهيم - عليه السلام - فقد تَوارثت أمة التوحيد مَحبة هذا الإمام الجليل ، وتواصت بالثناء عليه .

وهو من الذينَ يدعون لمن سَبقهم بإيمان ، ومن الذين يدعو لهم اللّاحقون من صالحي الأمة .

وهو ممن كتبَ الآثار الصالحة ، وممن كُتبت آثارهم الحَميدة .

وهو ابنٌ بارٌّ من أبناءِ هذه الأمة المَمدوحة الذين شَملتهم الخيرية الزمنية حيثُ عاش في القرنين الثاني والثالث للهجرة . فلقد قال رسول الله ﷺ : « خَيرُ الناس قَرني ، ثم الذينَ يَلونَهُم ثم الذينَ يَلونَهُم »[2] .

وهو أحد الأئِمة الكبار المشهود لهم بخلوص الاعتِقاد ، وحُسن الاتباع ، ولزوم السنة ، ورسوخ العِلم ، والثَّبات على الموقف الحق ، والجهاد المتصل في سبيل

---

(١) سورة الذاريات : ١٥ - ١٩ .

(٢) أخرجه البخاري ٥ / ١٩١ ، ومسلم (٢٥٣٣)، والترمذي (٣٨٥٨) من حديث ابن مسعود .

إحياء مَنهج أهل السنة والجَماعة ، وإبطال دَعاوى الفِرق الضالة .

ولقد أهَّلته هذه المناقب العَظيمة لأن يكون عالمًا ثَبتًا ، مُمسكا بالميزان ، مصيبًا للحق .

يقول عنه شَيخ الإسلام ابنُ تَيمية — رَحمه الله — : « وأحمد كانَ أعلم من غَيره بالكتاب والسنة وأقوالِ الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولهذا لا يكادُ يوجد له قَول يُخالف نصًا كما يوجد لغيره ، ولا يوجَد له قولٌ ضَعيف في الغالب إلا وفي مَذهبه قول يُوافق القول الأقوى . وأكثر مفاريده التي لم يختلف فيها مذهبه يكون قَوله فيها راجحًا ، كقوله بجواز فسخ الإفْراد والقِران إلى التَّمتع ، وقبوله شهادة أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة ، كالوصية فى السفر ، وقوله بتحريم نكاح الزانية حتى تَتوب ، وقوله بأن السنة للمُتَيمم أن يَمسح الكوعين بضَربة واحدة ، وقوله في المُستحاضة بأنها تارةً ترجع إلى العادة ، وتارةً ترجع إلى التمييز ، وتارة تَرجع إلى غالب عادات النِّساء ، فإنه رُوي عن النبي ﷺ فيها ثلاث سُنن ، عَمل بالثلاثة أحمد دون غَيره .

وقوله بجواز المُساقاة والمُزارعة على الأرض البيضاء والتي فيها شَجر ، وسواء كان البذر منهما أو من أحدهما ، وجَواز ما يشبه ذلك وإن كان من باب المُشاركة ليس من باب الإجارة ، ولا هو على خِلاف القياس ، ونَظير هذا كثير »[1] .

وإنما تتكامل الفضائل في الشخصية العظيمة .

فهذا الحق الذي رزقه الإمام أحمد ، وهذه الحكمة التي أوتيها تكاملا مع فَضيلة أو منقبة أخرى وهي : التواضع ، والإنصاف ، والفَرح بوجود شخصيات أخرى عظيمة مُتحرية للحق . مُصيبة له .

يقول ابن تيمية : « وأحمد كانَ معتدلًا عالمًا بالأمور يعطي كل ذي حقٍ حقه ، ولهذا كان يُحب الشافعي ، ويُثني عليه ، ويدعو له ، ويَذبُّ عنه عند بعض من يَطعن في الشافعي ، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها ، ومعرفته بأصول

---

(١) « مجموع فتاوى ابن تيمية » ٢٠ / ٢٢٩ .

الفقه : كالناسخ والمنسوخ ، والمُجمل والمُفسر ، ويثبت خبر الواحد ، ومناظرته عن مذهب أهل الحديث من خالفه بالرأي وغيره »[1] .

إن هذه لهي خصال العلماء الأكابر المتّقين .

ولا غَرو ، فأحمد ابن حنبل - كما وصفه أبو الحسن الأشعري - هو : « الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل الذي أبانَ الله به الحق ، ورفَع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقَمع به بدع المبتدعين ، وزَيغ الزائغين ، وشكَّ الشاكين فَرحمة الله عليه من إمام مُقدم ، وجَليل مُعظم ، وكَبير مفخم »[2] .

وإن جازَ لنا أن نَختار عبارة موجزة تلخص شخصية الإمام أحمد ابن حَنبل ، فإنا نَقول : إن شَخصية الإمام أحمد ابن حنبل هي :

عافية النفس باستواء الفِطرة ، وصفاء القلب ، وعُلو الهمة .

وعافية العقل ، بالحضور الدائم ، ورجحان الحجة ، وكمال الرشد .

وعافية الدين ، بالخلوص لله ، والفرار إليه ، والاعتصام بما اعتصم به رسول الله ﷺ وصحابته ومَن تبعهم بإحسان .

وإمام عظيم كهذا ، عالي النفس ، سليم القلب والدين ، صحيح المنهج ينبغي أن تتعرف على شخصيته ومناقبه الأجيالُ الجديدة من طلاب العلم ومُحبي المعرفة ، لا سيما في هذه الحِقب التي تتطلع فيها الأمة الإسلامية إلى الشفاء العام الحقيقي وهو : عافية النفس ، وعافية العقل ، وعافية الدين .

* * *

هذه هي مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « مناقب الإمام أحمد ابن حنبل » للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .

---

(١) « مجموع فتاوى ابن تيمية » : ٣٣٠/٢٠ .

(٢) « الإبانة عن أصول الديانة » : ١٥ .

ولقد صدرت الطبعة الأولى — التي تحرينا فيها استدراكات أساسية على النسخة الأولى المطبوعة عن طريق مقابلتها على مخطوطة المناقب التي حصلنا عليها — في عام ١٣٩٩ هـ لتوزع على نفقة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

ولقد فصل بيننا وبين ذلك الزمن تسع سنوات تبين لنا فيها أن نسخ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي قد نفدت ، مما يدل على أن الوعي الإسلامي ، أو القارئ المسلم قد اتجه وجهة علمية وثقافية صحيحة وهي : التعامل الفكرى الجيد مع ما كتبه أئمة الإسلام ، ومع ما كُتب عن هؤلاء الأئمة .

ولذا رأينا إصدار هذه الطبعة الجديدة من « المناقب » .

* * *

ولقد ذكرنا — في التقديم للطبعة الأولى — عشر مناقب مما تحلّى به الإمام أحمد ابن حنبل من مزايا ، وخصال ، وفضائل .

ويجدر بنا — إجتنابا للتكرار — أن ننوه بمفاهيم جديدة ، ودلالات عميقة في مناقب الإمام أحمد ابن حنبل :

معًا : العلم والخلق :

عظمة العلم : أن يَقترن العلم بالخلق ، أو أن يكون الأخير ثَمرة الأول .

وآفة العلم : أن يَنفصل العلم عن السلوك .

وينبغي — ونحن نتدارس المناقب — أن نُعالج هذه الآفة ، ففي حياة العلماء أصحاب المناقب علاج لهذه الآفات والعلل التي اكتنفت حياة المسلمين في عهودهم المتأخرة ، وعصرهم الحاضر .

إن « الصبغة الخلقية » تَظهر بوضوح شديد في المناقب . فكل منقبة يمدح بها العلماء الراسخون ذات صلة عميقة ووثيقة بـ « مَلَكات نفسية » سوية ومضيئة تَتبدّى في الفهم ، والسلوك ، والموقف ، والحال .

ونجد هذه الصبغة الخلقية بارزة في موضوعات المناقب وعناوينها ومن ذلك :

* تعبده .

* اجتهاده في ستر الحال .
* خوفه من الله عز وجل .
* دعاؤه ومناجاته .
* تواضعه .
* وَرعه وزهده .
* تعظيمه لأهل السنة والنقل .
* عَفافه .
* بَذله للعلم .
* نظافته وطهارته .
* ثباته في الحق .
* صَبره وجَلَده .
* تعقله واتّزانه .
* تَمسكه بالأثر والسنة .
* تأدّبه مع مَشايخه .

إننا أمام حياة نفسية ، وسلوكية ، وخلقية مُتكاملة تجاورت فيها العقيدة مع مقتضاها ، والمعلومة الصحيحة مع ثمرتها ، والمبدأ مع الموقف السلوكي الذي يصدقه ويزكيه .

وهذا هو المنهج القويم الذي تبني عليه النهضات الصحيحة ، وتنبثق منه الأمة الحَية .

وينبغي أن نُحيي – من خلال تأملنا في المناقب – هذا المنهج . فما تُعالج أدواء الأمة ، بَله أدواء الصفوة فيها إلا به .

إن الانفصال بين العلم والخلق وضع مُحزن ومدمر ، ولا صلة له البتة بمنهج الإسلام .

ألا إن منهج الإسلام هو الاتساق التام بين العلم والخلق :

* ﴿ أفمن يَعلمُ أنما أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبك الحَقّ كَمن هُو أَعمى إنما يَتذكَّر أُولوا الأَلباب ﴾[1] .

فَمَن هم هؤلاء العلماء أولوا الألباب ؟

﴿ الذينَ يوفون بعَهد الله ولا يَنْقُضونَ الميثاق ، والذين يَصِلونَ ما أَمر اللهُ به أَنْ يوصَلَ ويَخشونَ رَبَّهم ويَخافونَ سوءَ الحِساب ، والذين صَبَروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ وأَنْفَقوا مما رَزقْناهُم سِرًا وَعَلانِيةً ويَدْرَءُونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ أولئِكَ لَهُم عُقبَى الدّار ﴾[2] .

* ﴿ أَمَّن هُو قانِتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجدًا وقائمًا يَحذرُ الآخِرة ويَرجوا رَحمَةَ رَبه قُل هَل يَستوي الذينَ يَعلمونَ والذينَ لا يَعلمون إنَّما يَتَذكرُ أولوا الأَلباب ﴾[3] .

* ﴿ لَقد جَاءكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكم عَزيزٌ عَليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عَليكُم بالمؤمنين رَؤوفٌ رَحيم ﴾[4] .

* ﴿ أَلَمْ يَأن لِلذين آمنوا أن تَخشع قلوبهم لِذكر الله وما نَزل مِن الحَقِّ ولا يَكونوا كالذين أوتوا الكِتاب من قَبل فَطال عليهم الأَمد فَقَست قلوبهم وكَثيرٌ منهم فاسِقون ﴾[5] .

ولقد عابَ القرآن الكريم على أهل الكتاب هذا الانفصال الواسع المستمر بين العلم والسلوك :

* ﴿ يا بَني إسرائيل اذكُروا نِعمتي التي أَنعمتُ عَليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعَهدكُم وإيايَ فارهَبون ، وآمنوا بما أنزلتُ مصدقًا لما مَعكم ولا تكونوا أوّل كافرٍ

---

(١) سورة الرعد : ١٩ .

(٢) سورة الرعد : ٢٠ — ٢٢ .

(٣) سورة الزمر : ٩ .

(٤) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٥) سورة الحديد : ١٦ .

به ولا تَشتَروا بآياتي ثَمنًا قَليلًا وإياى فاتَّقون ، ولا تَلبسوا الحقَّ بالباطِل وتَكتموا الحَقَّ وأنتُم تَعلمون ، وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاةَ واركعوا مَع الراكعين ، أتأمُرون الناسَ بالبِرِّ وتَنْسَون أَنفسكُم وأنتم تَتلونَ الكِتاب أَفلا تَعقِلون ﴾[1] .

* ﴿ مَثل الذينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثم لَم يَحمِلوها كَمثلِ الحِمارِ يَحمل أسفارًا بِئسَ مَثَلُ القَومِ الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهدي القومَ الظالمين ﴾[2] .

إن العُلماء ليسو نَقلةَ نصوص فَحسب ، إنهم – إلى جانب النقل الصحيح – أُسوة يرى الناس من خِلالها ، ويشمون فيها عِطر الاستقامة ، والصدق ، والسمو .

وإذا لم يكن العلماء على هذا النحو ، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

فالانفصال بين العلم والخلق يؤدي إلى هَزيمة المُثُل في واقع الحياة والناس ، وهي هزيمة تجري على يد من يدعو إلى تلك المثل .

وهذه فِتنة . ونحن نرى أن أدب المناقب يعد جنة تَقي الناس هذه الفتنة ؛ ذلك أن دراسة المناقب ، دراسة تدبر وفقه ، واستعداد للعمل ، خليقة بسد الفجوة القائمة بين العلم والخلق .

وبَدهي أن إحياء المناقب لا يغني علماء اليوم عن الربط بين العلم والخلق في مسالكهم المعاصرة ، فلكل جيل من المسلمين ما كسب . ولا تصح الإنابة في هذه الأمور .

بَيد أن إحياء المناقب حافز للمعاصرين على أن يتحلوا بمثل ما تحلى به أسلافهم : ﴿ هو الذي بَعث في الأُميّينَ رسولًا منهم يَتلو عَليهِم آياتِه ويُزكّيهم ويُعَلمُهُم الكِتَابَ والحِكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لفي ضَلالٍ مُبين ، وآخرين منهم لما

---

(١) سورة البقرة : ٤٠ – ٤٤ .

(٢) سورة الجمعة : ٥ .

يَلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يُؤتيه مَن يشاء والله ذو الفَضل العَظيم ﴾[1] .

بعضهم أولياء بعض :

ومن المفاهيم الراقية التي ينبغي أن تَجلى في سياق الحديث عن المناقب والصفات الكريمة : مفهوم العلاقة بين العلماء .

فالعلاقة بين العلماء هي علاقة إيمان ، وأخوة ، وتَراحم :

قال تعالى : ﴿ واذكروا نِعمةَ اللهِ عَليكم إذْ كنُتم أعداءً فألَّفَ بينَ قُلوبكم فأصبَحتُم بنعمته إخوانا ﴾[2] .

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « المُسلمُ أخو المُسلم »[4] .

« لا تَقاطَعوا ، ولا تَدابروا ، ولا تَباغَضوا ، ولا تَحاسدوا ، وكُونوا عِباد الله إخوانًا »[5] وحظ العلماء من ذلك كله هو الحظ الأعظم .

لماذا ؟

لأن العلماء هم أعلم الناس بدلالة هذه النصوص ، وبوجوب العمل بمقتضاها .

---

(١) سورة الجمعة : ٢ — ٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٣) سورة الحجرات : ١٠ .

(٤) قطعة من حديث رواه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) ، وأبو داود (٤٨٩٣) ، والترمذي (١٤٢٦) من حديث ابن عمر .

(٥) قطعة من حديث رواه البخاري (٦٠٦٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، ومالك في « الموطأ » ٢ / ٩٠٧ و ٩٠٨ ، وأبو داود (٤٨٨٢) و (٤٩١٧) ، والترمذي (١٩٢٨) من حديث أبي هريرة .

فمن يعلم قيمة الصلة الإيمانية ، إن لم يعلمها العلماء !

ومن يعلم مَكانة الإخاء ، إن لم يعلمها العلماء !

ومن يستطع أن يتمثل هذه القيم ، إن لم يستطع ذلك العلماء !

والعلماء إذ يعلمون الإيجاب في هذه القضية ، فإنهم يعلمون السلب فيها ، وهو سلب يجب أن يُتّقى أبدًا .

والسلب هاهنا هو : سلوكِ التباغي والتباغضِ والتدابر ، والتحاسد بين علماء أهل الكتاب .

قال تعالى : ﴿ وما اختَلف الذين أوتوا الكِتاب إلا مِن بَعد ما جاءهم العِلم بَغيًا بَيْنَهم ﴾[1] .

﴿ وما تَفرقوا إلا من بَعد ما جاءَهم العِلم بَغياً بَينهم ﴾[2] .

﴿ وآتيناهم بَينات من الأَمر فما اختَلفوا إلا من بَعد ما جاءهم العِلم بَغْيا بَينهم ﴾[3] .

وهذه الأمة مأمورة باتباع سبيل المؤمنين ، واجتناب سَبيل المغضوب عليهم وسَبيل الضالين .

والعلماء في طليعة من أمر بذلك .

ونحن نَحمد الله تعالى أن جعل علماء هذه الأمة مستجيبين للأمر ، وأن جعل سرائرهم تَصفو ، وموازينهم تَستقيم ، وعُرى الإخاء والمحبة والتراحم بَينهم تقوى وتتوثق .

لقد زكى الإمام أحمد ابن حنبل وشَهد له بالفضل والتقديم جمهرة من العلماء الكبار .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة الشورى : ١٤ .

(٣) سورة الجاثية : ١٧ .

ففي باب « ثناء نظرائه ومُقاربيه في السن عليه » زكّاه وشهد له جمهرة علماء الأمة الثقات المشهود لهم بالعلم والفضل .

فما دلالة ذلك ؟

دلالته ــ أولًا ــ أن للإمام أحمد ابن حنبل مكانة سامية ، ليس عند جمهور الأمة فحسب ، بل لدى الصفوة فيها من أكابر العلماء .

ودلالته ــ ثانيًا ــ طهارة القلب ، ونقاء السريرة ، فمن المعروف أن سوء الطَّوية قيد يقيد اللسان ويمنعه من النطق بشَهادة الحق ، أو الإفصاح عن تَزكية كريمة ، لكن جهر هؤلاء العلماء بالثناء على أحمد آية على طهارة قلوبهم .

ودلالته ــ ثالثًا ــ أنه حين تعلو الرتب والهمم ، تنتفي الأَضغان والأحقاد .

لايَحملُ الحِقدَ مَنْ تعلوبِهِ الرُّتَبُ ولا يَنالُ العُلا مَنْ طَبعُهُ الغَضَبُ

ودلالته ــ رابعًا ــ سَلامة المِعيار ، فهؤلاء الرجال الأفذاذ لم يُعرفوا بالمداهنة بحال ، فهم أهل ديانة وصراحة .

لقد قوموا الإمام أحمد بمعيار سليمٍ هو : كمال الاعتقاد ، وسداد المنهج ، وطهر السيرة .

ووفق هذا المعيار السليم شهدوا له وزكوه .

والعبرة في ذلك أن يَتحلى علماء اليوم بهذه المكارم حتى ينتهى التباغض ، والتحاسد ، والتباغي ، ويحلّ محله التحابب ، والتناصح ، والتزاكي الشريف .

فالعلماء طائفة من المؤمنين : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعضهم أولياءُ بَعض ﴾[1] .

الباب الصحيح للمجد :

ومن هذه المفاهيم السديدة : أن يَتعرف مُسلمو اليوم على الأبواب الصحيحة

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .

للمكانة ، والوزن ، والتقدير ، والمجد .

فللكرامة ، وللمجد سنن وأسباب ، وليس الأمر أمنية تتمنى ، ولا دعوى تدعى . لقد أتى الإمام أحمد ابن حنبل الأمر من بابه ، فأخذ يطلب العلم ، ويتواضع في طلبه :

* قال إسحاق الشهيدي : « كنت أرى يَحيى القطان يصلي العَصر ، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد فَيقف بين يديه علي بن المديني ، والشاذكوني ، وعَمرو بن علي ، وأحمد ابن حنبل ، ويحيى بن مَعين وغيرهم يَستمعون الحديث وهم قِيام على أرجلهم إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لأحدٍ منهم : اجلس ، ولا يَجلسون هيبة وإعظامًا » .

* وقال قتيبة بن سعيد : « قَدمت بَغداد وما كانَت لي همة إلا أن أَلقى أحمد ابن حَنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يَحيى بن مَعين فتذاكرنا ، فقام أحمد ابن حنبل وجلس بَين يدي ، وقال : أمل عليَّ هذا ، ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يدي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، اجلس مكانك ، فقال : لا تشتَغِل بي ، إنما أُريد أن آخذ العلم على وَجهه » . وإنما يقتضي العلم العمل .

وقد عمل الإمام أحمد بما علم ، فكانت له الكرامة من الله تعالى وحسن الثناء والدعاء من المسلمين .

والعلم والعمل هما الباب الواسع للمجد الحقيقي .

* ﴿ وتلكَ حُجَّتنا آتيناها إبراهيمَ على قَومه نَرفع درَجاتٍ مَن نَشاءُ إنَ ربكَ حكيمٌ عليم ﴾[١] .

* ﴿ يَرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكُم والذينَ أوتوا العِلم دَرجات ﴾[٢] .

* ﴿ إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيبُ والعَملُ الصالِحُ يَرفَعه ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنعام : ٨٣ .

(٢) سورة المجادلة : ١١ .

(٣) سورة فاطر : ١٠ .

الاستمساك بالمنهج أبدًا

ومهما كانت الظروف :

من دعاء المؤمنين في كل ركعة في صلاتهم : ﴿ اهْـدِنا الصِّراطَ المُستقيم ﴾ .

وحقيقة الهدى أن يُقيم المسلم حَياته كلها على مَنهج الإسلام في الغَضب والرضا ، والنَّشاط والكسل ، والشِّدة والرخاء ، والإبتِلاء والعافية .. فلا عَشوائية ، ولا مزاج ، ولا تَلون ، ولا استِثناء ، ولا تجاوز :

﴿ فَاسْتَقِم كما أُمِرت ﴾[1] .

فالمنهج واضح . والتزامه واجب .

وأبرز ما في الإمام أحمد أنه صاحب منهج واضح .

وأبرز ما فيه أنه ملتزم هذا المنهج دومًا .

إن منهج الإمام أحمد ابن حنبل هو : التزام الجماعة ، والسمع والطاعة لولي الأمر ، والصبر على ذلك وإن غلت الدنيا بالأحداث الجسام ، وإن بدا من ولي الأمر ما يكرهه المرء .

فلنتعرف على منهجه ، ثم لننظر كيف كان التزامه به ؟

يقول الإمام أحمد : « والسمع والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين ، البَرّ والفاجر ، ومن ولي الخلافة فاجتَمع الناس عليه ورَضوا به ، ومَن غلبهم بالسيف حتى صار خليفةً وسُمي أمير المؤمنين .

والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة ، والبَر والفاجر ، لا يترك ، وقسمة الفيء ، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض ، ليس لأحد أن يَطعن عليهم ولا ينازعهم ، ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة ، من دَفعها إليهم أجزأت عنه بَرًا كان أو فاجرًا .

وصلاة الجُمعة خَلفه وخَلف كل من وَلي جائزة تامة ركعتين ، من أعادهما فهو مبتدع تارك للآثار ، مخالف للسنة ، ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم يَر

---

(١) سورة هود : ١١٢ .

الصلاة خلف الأئمة ، من كانوا بَرّهم وفاجرهم ، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين ، وتدين بأنها تامة ، لا يكون في صدرك شك .

ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله، فإن ماتَ الخارج عليه مات ميتة جاهلية.

ولا يحل قتال السلطان ، ولا الخروج عليه لأحد من الناس ، فمن فعل ذلك فهو مُبتدع على غير السنة والطريق .

والصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عَدل أو جور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا »[1] .

هذا هو المنهج الواضح القويم .

فكيف كان إلتزام الإمام أحمد به في الواقع العملي ؟

لقد نزل بالإمام أحمد من الهول ، والبلاء ، والشدة ، والكرب ما تنوء به أمة بأسرها .

ومن المعروف أن الناس يفرطون في المنهج ، ويتجاوزون القاعدة حين ينزل بهم ابتلاءٌ وتَنكيل ، أو يَتعرضون لمحنة عاصفة .

فهل تزحزح أحمد عن منهجه وهو يواجه المحنة الشاقة الطويلة المريرة ؟

لقد التزم الرجل العظيم منهجه في الشدة كما التزمه في الرخاء . فلم ينزع يدًا من بَيعة ، ولم يَدعُ إلى الخروج ، ولم يحرض على فتنة ، ولم يترك الصلاة خلف الأمراء ، ولم يلمح — ولو بكلمة واحدة — إلى عدم الشرعية ، بل كان يخاطب الحاكم — وهو في الأقياد والأصفاد — باللقب الشرعي : « أمير المؤمنين » .

امتنع عن كل إثارة وتَهييج وهو يَعلم سعة شعبيته ، ومحبة المسلمين له ، ومدى استجابتهم لكلمته .

---

(١) « طبقات الحنابلة » ١ / ٢٤١ — ٢٤٦ .

* كان يقول لخصومه : « بيننا وبينكم الجنائز » .

* قال أحمد : « قال لي محمد بن نوح ذات يوم : يا أبا عبد الله ، إنك لست مثلي ، أنت رجل يُقتدى بك ، وقد مَدَّ الخلق أعناقهم ليسمعوا مقالتك ، فاتق الله واثبت لأمر الله »[1] .

فأحمد يعلم أن أعناق الخلق ممدودة إليه .

* وقال أبو جعفر الأنباري : « لما حُمل أحمد إلى المأمون أُخبرت ، فعبرتُ الفرات فإذا هو جالس فسلمت عليه ، فقال : يا أبا جعفر ، تَعنَّيتَ ، فقلتُ : ليس في هذا عَناء ، وقلت له : أنتَ اليوم رأس والناس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليُجيبنَّ بإجابتك خلق من خلق الله ، وإن أنت لم تجب ليمتنعنَّ خلق من الناس كثير »[2] .

* قال المرّوذي : « قال لي أبو عبد الله وهو بين الهنبازين : اخرج انظر أيَّ شيءٍ تَرى ؟ قال : فخرجتُ إلى رحبة دار الخليفة فرأيتُ خَلقًا من الناس لا يحصي عددهم إلا الله ، والصحف والأقلام في أيديهم والمحابر في أذرعتهم فقال لهم المروذي : أي شيءٍ تعملون ؟ فقالوا : ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه ، فدخل المروذي إلى أبي عبد الله وهو قائم بين الهنبازين ، فقال : رأيتُ قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه ، فقال : يا مروذي ، أُضلّ هؤلاء كلهم ؟ أَقتل نفسي ولا أُضل هؤلاء كلهم »[3] .

* وقال المروذي وعباس بن مشكويه الهَمذاني : « لقد رأينا أحمد رفع رأسه إلى السماء وحَرّك شفتيه فما استتمّ الدعاء حتى رُدَّ المئزر ـــ الذي كاد يسقط تحت التعذيب ـــ إلى موضعه بقدرة الله تعالى ، فضَجَّت العامة ، وهمّوا بالهجوم على دار السلطان فأمر بحله » .

---

(1) « ذكر المحنة » : ٣٩ ، و « تاريخ بغداد » ٣ / ٣٢٣ .
(2) « تهذيب الكمال » ١ / ٤٦١ ، و « مختصر تاريخ دمشق » ٣ / ٢٥١ .
(3) « سير أعلام النبلاء » ١١ / ٢٥٤ .

هذه كلها مشاهد ومواقف تشهد بشعبية الإمام أحمد ، ومحبة المسلمين له .

والإمام يعلم ذلك ويعرفه .

والإمام – في الوقت نفسه – يتعرض لبلاء عظيم .

ولكنه – على الرغم من ذلك كله – لم يصدر عنه أي تصرف يوحي بنقض البيعة ، أو الخروج على السلطان ، بل كان يقول دومًا : « والسنة هي الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عَدلٍ أو جَور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا » .

والتفسير العلمي الصحيح لذلك هو : أن الإمام أحمد صاحب منهج واضح ، وأنه وقاف عند المنهج .

﴿ فاسْتَقِم كما أُمرتَ ومن تابَ مَعك ولا تَطغوا إنّه بما تَعملون بصير ﴾ .

﴿ فلذلك فادعُ واسْتَقِم كما أُمرت ولا تَتّبع أَهْواءَهم ﴾ .

* * *

ويُعدُّ كتاب « مناقب الإمام أحمد » للعلامة ابن الجوزي – رحمه الله – من أهم الكتب التي تناولت سيرة الإمام باستيعاب شامل ، فإن مصنفه استوعب معظم ما يتصل بحياة الإمام أحمد العلمية والذاتية ، جامعًا الروايات بأسانيدها عن عدد من مشايخه – رحمهم الله – ناظمًا لها في عقد كتابه هذا ، فكانت واسطةَ العقد محنةُ الإمام الدينية والدنيوية بما فيها من أسمى معاني الصبر والزهد والورع ، فكان بحق من أهم مراجع البحث في سيرة الإمام أحمد رحمه الله .

ولم أتحدث عن طريقة ابن الجوزي في تصنيفه لهذا الكتاب ، وعن مصادره التي استقاه منها ، وعن سعة الكتاب وشموله واستيعابه ، خشية الإطالة ، وإنما تركت ذلك للقارئ الكريم يتبينه من خلال أبواب الكتاب وفصوله .

* * *

وكان الكتاب قد طبع عدة طبعات سابقة ، ولكن كان فيها الكثير من السقط والتحريف ، ولعل ذلك يرجع لقلة النسخ الخطية المعتمدة ، فكان لابد من تلافي

ذلك بجمع أكبر قدر ممكن من نسخ الكتاب الخطية ، وكان الاعتماد في تحقيق الكتاب على النسخ التالية :

١ ــ نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٣١١ تاريخ ، وهي في ١٨٤ ورقة ، وبآخرها قصيدة في ذم الدنيا ومدح السنة وأهلها وذم البدعة وأربابها في ثلاث ورقات ، للإمام عز الدين أبي محمد عبد الرزاق الرسعني الحنبلي . والنسخة مكتوبة بقلم معتاد ، كتبها محمود بن محمد بن عمر الشيشيني الشافعي سنة (٨٥٠) هـ ، وعدد الأسطر لكل صفحة ٢٧ سطرًا ، ومتوسط الكلمات ١٣ كلمة في كل سطر ، وقد رمزت إليها بالحرف (ش) .

٢ ــ نسخة خطية محفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم ٣٤٢٣ . وبها سقط من أولها وحتى منتصف الباب الخامس ، وعلى الرغم من ذلك فهي نسخة جيدة مكتوبة بخط نسخي ومشكولة وبهامشها بعض التعليقات ، كتبها محفوظ بن عيسى بن محفوظ الزملكاني عن نسخة بخط المصنف سنة (٥٦٦) هـ كما قال الناسخ ، وقرئت على الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي سنة (٦١٣) هـ ، ومرة أخرى سنة (٦١٥) هـ . وقوبلت على نسخة بخط الشيخ زين العابدين بن علي بن إبراهيم بن علي بن عبد الله الحمصي الفرزلي في سنة (٧٣٢) هـ .

وعدد الورقات الموجودة منها ٢٣١ ورقة في كل ورقة ١٩ سطرًا ومتوسط عدد الكلمات ١٢ كلمة في كل سطر . وقد رمزت لها بالحرف (هـ) .

٣ ــ نسخة دبلن (تشستربتي) برقم ٣٢٧٤ . وهي مكتوبة بخط نسخي جيد سنة (٥٩٩) هـ ، ولم يعرف الناسخ ، وعليها تملّك لمحمد بن أحمد بن غدير تكرر على كثير من صفحاتها ، وهي مقابلة على نسخة بخط المصنف أيضًا ، وبها سقط في وسطها من بداية الباب الثمانين إلى بداية الباب الثاني والتسعين ، وعدد ورقاتها ٢٤٢ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطرًا ، ومتوسط الكلمات ١٣ كلمة في كل سطر ، وقد رمزت لها بالحرف (د) .

٤ ـ نسخة خطية محفوظة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم ٣٤٠٦ ، مُهداة من مكتبة الشيخ محمد العساف ، مكتوبة بخط نسخي كتبها محمد بن حمد العسافي سنة (١٣٣٥) هـ عن نسختين خطيتين ، إحداهما قديمة نسخت سنة (٥٣٠) هـ تقريبًا ، والأخرى حديثة نسخت سنة (١٣٢٥) هـ ، وعدد ورقاتها ١٩٥ ورقة ، ومسطرتها ٢٤ سطرًا ، ومتوسط الكلمات ١٥ كلمة في كل سطر ، وقد قُسمت إلى جزأين ، وفيها تحريف وتصحيف كثير ، وتقديم وتأخير في ترتيب الأبواب ، وقد رمزت لها بالحرف (ف) .

٥ ـ قطعة من نسخة خطية محفوظة بالمكتبة التيمورية برقم ١٠٤٧ تاريخ ، تبدأ من أثناء الكلام على الباب الثالث والسبعين ، وتنتهي في أثناء الكلام على ذكر المختارين من الطبقة الثامنة ، ورمزت لها بالحرف (ت) .

٦ ـ نسخة من كتاب « مختصر مناقب ابن حنبل » لابن الجوزي ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٢ تاريخ ، مكتوبة بقلم معتاد ، كتبها إبراهيم بن عبد الله المقدسي ، وهي في ٧٣ ورقة ، وقد أشرتُ لها بكلمة « المختصر » .

كذلك رمزت للمطبوعة بحرف (ط) عند تصحيح التصحيف والتحريف والسقط الوارد فيها .

ما تتميز به هذه الطبعة :

١ ـ توفر عدد لا بأس به من النسخ الخطية للكتاب مما ساعد على تدارك السقط ، وإيضاح الكثير من العبارات التي وردت مطموسة أو غير واضحة في بعض النسخ . وقد حاولت قدر المستطاع إيراد النص الصحيح لأصل الكتاب ، وذكرت في الحواشي الخلاف بين النسخ ، وربما وردت بعض الكلمات خطأ في جميع النسخ ، فأثبت الصواب من المصادر التي نقل عنها المصنف ، وأشرت إلى ما ورد في الأصول في الهامش .

٢ – إحالة الكثير من أخبار الكتاب إلى مصادرها المنقولة عنها مثل « تاريخ بغداد » و « حلية الأولياء » و « الجرح والتعديل » . أو إلى بعض المصادر التى نقلت عن المصنف مثل « سير أعلام النبلاء » و « محنة الإمام أحمد » للمقدسي ، و « الجوهر المحصّل » للسعدي وغيرها – وهو ما كانت تفتقر إليه الطبعات السابقة – وذلك للوصول قدر الإمكان إلى النص الصحيح السليم .

٣ – تخريج الأحاديث بشكل أوفى لم يوجد في الطبعات السابقة ، وكذلك تخريج الشعر ، والتعريف بالأعلام والمدن والكتب ، وشرح الغريب من الكلام بشكل موجز ، مع الإحالة إلى مصدر التعريف لمن يريد الاستزادة والتوسع .

٤ – كان لابد لي من التعليق على بعض المواطن التي ورد فيها ما لا يتفق وما كان عليه السلف الصالح ، وبيان الحق الذي تؤيده النصوص في ذلك . فإن كتب المناقب غالبًا ما يكون فيها مُغالاة في المديح والثناء والإطراء ، وذكر القصص التي هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ، ولم يقلَّ نصيب « مناقب الإمام أحمد » عن غيره في ذلك ، وبخاصة عند ذكر وفاة الإمام أحمد وما صاحب ذلك أو تبعه ، وما حدث عند قبره ، والمنامات التي رُئيت له ، وقد تتبعت ذلك في الكتاب وبيَّنت وجه الحق فيه ، وعلقت عليه بما ظهر لي أنه الصواب .

وأسأله تعالى أن ينفع به ، وأن يلهمنا الرشد والصواب ، ويجعلنا الفائزين يوم الحساب ، فإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

عبد الله بن عبد المحسن التركي

الرياض ١٤٠٩ هـ